البحث الأول

الفِطْـــرَةُ

(أدلتهـا، ومعنـاها)

تأليف

د/ خالد بن ضحوي الظفيري

عضو هيئة تدريس منتدب في كلية الشريعة، جامعة الكويت

ومُعلّم وإمام وخطيب في وزارة الأوقاف

الفطرة: أدلتها ومعناها

خالد بن ضحوي الظفيري

قسم العقيدة ، كلية الشريعة، جامعة الكويت، الكويت

البريد الالكتروني: **Almadani.kh@gmail.com**

الملخص:

يهدف البحث إلى بيان معنى الفطرة التي خلق الله العباد عليها، وأثر معرفة المسلم أن الله تعالى خلقه على الدين الإسلام الصحيح، ثم بيان صحة الدين الإسلامي الذي فطر الله العباد عليه، وبيان ارتباط هذه المسألة بباب القضاء والقدر، وكذلك عرض معنى الفطرة في الفكر الإسلامي، وتناول العلماء لها بالشرح والتحليل، وأيضا بيان أهمية الرجوع إلى الفطرة والعودة إليها في تقرير حقوق الإنسان، والاستفادة منها في الواقع المعاصر، واعتمدت المنهجي الاستقرائي والتحليلي، وتوصلت إلى نتائج عدة منها: أن الفطرة ما جبل عليه الإنسان من الأشياء الظاهرة والباطنة في أصل خلقته التي تتطلبها إنسانيته وبشريته، وأن الدين الإسلامي متوافق مع الفطرة ومتطابق معها تطابق الأصل مع الصورة، وأن سبب اختلافهم في معنى الفطرة في هذا الحديث هو أن القدرية كانوا يحتجون به على أن الكفر والمعصية ليسا بقضاء الله، بل مما ابتدأ الناس إحداثه، فحاول جماعة من العلماء مخالفتهم بتأويل الفطرة على غير معنى الإسلام، ولا حاجة لذلك لأن الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ الفطرة إلا الإسلام، ولا يلزم من حملها على ذلك موافقة القدرية، وأيضا فن الإسلام يراعي الفطرة الإنسانية في تشريعه، فلا يأمر الإنسان إلا بما هو أصل في طبيعته وخلقته ولا ينهاه إلا بما هو مخالف لها وغريب عليها، وكذلك يظهر التشابه الواضح بين مفهوم الفطرة وبين فكرة الحق الطبيعي، التي تؤصل لفكرة حقوق الإنسان التي انتشرت في المواثيق الدولية كتطور لأدبيات الحضارة الغربية مما يجعلنا نجزم بأن الفطرة هي الأصل لهذا الحق، ومنه انبثقت حقوق الإنسان، ومن النتائج: أن علماء

الكلام استخدموا الفطرة بالشرح والتحليل في تقرير الاستدلال على وجود الله تعالى ، فمنهم من عرفها بالخلقة المهيأة لقبول الحق، ومنهم من عرفها بالتوحيد، والمعنيان متعلقان ببعضهما البعض، والفطرة الإنسانية خيّرة في أصل الخلقة، وليس معنى ذلك أنه لا يقع منها الشر، وإنما هو خارج عن أصلها وطبيعتها، ويوصي البحث بتعميق الدراسة حول الفطرة، وأثرها في الواقع المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الفطرة، الإسلام، الواقع المعاصر، الفكر

Instinct, its evidence and meaning

Khaled bin Dhawi Al-Dhafiri
Department of Doctrine, College of Sharia, Kuwait University, Kuwait
E-mail: Almadani.kh@gmail.com

Abstract:

The research aims to explain the meaning of the nature with which God created His servants, and the impact of the Muslim's knowledge that God Almighty created him on the true religion of Islam, then clarifying the validity of the Islamic religion upon which God created His servants, and explaining the connection of this issue with the chapter of predestination and destiny, as well as presenting the meaning of the nature in Islamic thought. The scholars dealt with it with explanation and analysis, and also explained the importance of returning to the common sense and returning to it in determining human rights, and benefiting from it in the contemporary reality. It adopted the inductive and analytical methodology, and reached several results, including: The common sense is the apparent and hidden things that man has been created with in the origin of his creation. required by his humanity and humanity, And that the Islamic religion is compatible with the nature and identical with it, just as the original is identical with the form, and that the reason for their differences in the meaning of the nature in this hadith is that the Qadariyyah used to use it as evidence that disbelief and disobedience are not the decree of God, but rather what people began to cause, so a group of scholars tried to contradict them by

interpreting the nature as It is different from the meaning of Islam, and there is no need for that because the narrations transmitted from the predecessors indicate that they did not understand the word “fitrah” except Islam, and whoever interprets it as such does not require approval of fatalism. Also, the art of Islam takes into account human nature in its legislation, so it does not command man except what is fundamental in his nature. He created it and does not prohibit it except with what is contrary to it and strange to it. Likewise, the clear similarity between the concept of nature and the idea of natural right appears, Which establishes the idea of human rights that has spread in international conventions as a development of the literature of Western civilization, which makes us assert that common sense is the origin of this right, and from it human rights emerged. Among the results: the theologians used common sense through explanation and analysis in determining the inference of the existence of God Almighty, and some of them knew it. By the creation that is prepared to accept the truth, and some of them defined it as monotheism, and the two meanings are related to each other, and human nature is good in the origin of creation, and this does not mean that evil does not occur from it, but rather it is outside of its origin and nature, and the research recommends deepening the study about nature and its impact on contemporary reality.

Keywords: Instinct, Islam, Contemporary reality, Thought.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقــدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد، فإن الله – تعالى – خلق الناس على فطرة سوية صالحة وقابلة ومهيأة للإيمان والخير والحق، تساوى فيها جميع الناس، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1]، وكل مولود يولد على تلك الفطرة، كما أخبر الرسول ﷺ.

ولِمَا لهذه الفطرة من شأن عظيم في ديننا الإسلامي؛ إذ قد ذكرها الله ﷻ في كتابه، وذكرها رسوله ﷺ في سنته الشريفة، فقد كثرت أقوال العلماء عنها وفي تفسيرها، واختلفوا في معناها، ولهذا استخرت الله – تعالى – في كتابة هذا البحث، الذي يتناول الفطرة ومعناها وأدلتها في ضوء الكتاب والسنة، بشيء من التفصيل والتحليل، مع بيان أثرها في الواقع، وأهمية العودة إليها حتى ينطلق الناس منها إلى قبول الدين الحق، الذي ارتضاه الله للناس جميعا.

وقد قسمت بحثي إلى أربعة مباحث وهي:

المبحث الأول: تعريف الفطرة لغة واصطلاحاً، وأدلتها.

المبحث الثاني: أهم معاني الفطرة، والقول الراجح فيها.

المبحث الثالث: مفهوم الفطرة في الفكر الإسلامي، ومدى ارتباطها بالإسلام.

المبحث الرابع: العودة إلى الفطرة مقاربات فلسفية ومعطيات واقعية، وأثره في

(١) الروم: ٣٠.

الواقع المعاصر.

ثم الخاتمة وفيها ذكر أهم نتائج البحث.

أما عن منهجي في هذا البحث فهو كالتالي:

١- أعزو الآيات إلى السورة وأذكر رقمها إلا إذا تكررت كثيراً.

٢- أُخرج الأحاديث بذكر المصدر واسم الكتاب والباب ورقم الحديث.

٣- أعزو كل مذهب إلى قائله إن وجد.

٤- أعزو كل نقل نقلته عن إمام من الأئمة إلى الكتاب وأذكر الجزء والصفحة.

٥- وضعت فهارس لهذا البحث وهي كالتالي:

٦- فهرس للمصادر والمراجع.

٧- فهرس للمواضيع.

وختاماً أسأل الله ﷻ أن يجعل ما كتبته خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

تعريف الفطرة لغة واصطلاحاً وأدلتها

ويندرج تحت المبحث الأول ثلاثة مطالب:

المطلب الأول

تعريف الفطرة لغة

عندما نستعرض معاجم اللغة للبحث عن الأصل اللغوي لكلمة الفطرة، فنجدها مأخوذة من الثلاثي: (فَطَر)، وأما عن تصاريف هذه الكلمة فهي: فطره يفطِرُه ويفطُرُه، فانفطر وتفطّر[١].

ولهذه المادة عدة معان في لغة العرب، ومنها:

١- **الشَّق**، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾[٢] أي: انشقت.[٣]

٢- **والفطر كذلك حلب الناقة بالسبابة والإبهام**، يقال: فَطَرْت الناقة أفطرها فطراً، وهو: الحلب بأطراف الأصابع[٤].

٣- **والفُطْر**: القليل من اللبن حين يحلب. قال: المرّار: عاقر لم يحتلب منها فُطُر[٥].

٤- **والفطرة: الخلقة**[٦]، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[٧].

---

(١) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة/ لبنان، ط ٨/ ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥ م، فصل الفاء، مادة: فطر، ص ٤٥٦.

(٢) سورة الإنفطار: ١ .

(٣) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر/ بيروت . ط ٣/ ١٤١٤ هـ ٥/٥٥.

(٤) المرجع السابق (٥/٥٥ -٥٦).

(٥) المرجع السابق (٥/٥٥ -٥٦).

(٦) المرجع السابق (٥/٥٥ -٥٦).

(٧) سورة الإسراء: ٥١.

٥- **والفطرة: الابتداء والاختراع.** قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[١]، قال ابن عباس: ماكنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: أنا ابتدأت حفرها.[٢]

٦- **والفطرة تأتي بمعنى الدين،** كقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[٣]، ويستفاد مما سبق سبق أن الثلاثي فطر يدل على معنى الخلق والإنشاء والابتداء والهيئة والجبلة والدين والشق والنقب وغيرها من المعاني المذكورة في ثنايا المعاجم العربية.

المطلب الثاني
تعريف الفطرة اصطلاحا

اختلف العلماء في تعريف الفطرة؛ وذلك لأن ألفاظها لم تكن قطعية الدلالة، وإنما يفهم معناها من السياق، وقد جاءت مادة الفطرة في القرآن الحكيم على ثلاثة معان:

الأول: بمعنى الخلق والإبداع على غير مثال سابق، وهذا المعنى هو الأكثر وروداً في القرآن الكريم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[٤]

الثاني: ويشير إلى انتقاض السنن القائمة، والقوانين المحكمة في نظام الكون وحركة الأفلاك، سواء كان على سبيل التخويف للعظة والاعتبار كما في قوله – تعالى –: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾[٥]، أم على

(١) سورة فاطر: ١.
(٢) لسان العرب، مرجع سابق (٥/٥٥ –٥٦).
(٣) سورة الروم ٣٠.
(٤) سورة الأنعام: ٧٩
(٥) سورة مريم: ٩٠

على سبيل التغير المحتوم، المشعر بانتهاء الدنيا ونهاية العالم كما في قوله – تعالى – : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ ﴾[١]

الثالث: وهو ما يشير إلى الارتباط بين الدين والخَلق؛ فمنزل الكتاب والدين، هو خالق الخلق ومنشئ الناس من عدم، كما في قوله – تعالى – : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ ﴾[٢]، وفي ضوء المعنى الأخير تعرض العلماء لمعنى الفطرة بالشرح والتفسير.

فعرفها السيد الجرجاني بأنها: " الجبلة المتهيئة لقبول الدين "[٣]، وعرفها الراغب الأصفهاني بأنها: " فطرة الخلق، وإيجاد الشيء وإبداعه على هيئة متوشحة لفعل من الأفعال " [٤].

وعرفها ابن القيم بأنها: " النور الإلهي الذي أودعه الله تعالى في الإنسان؛ ليعرف به الخير والشر، ويميز به بين النافع والضار"، أي: أن الله تعالى غرس في الإنسان هذه البصيرة الأخلاقية، وجعلها غريزة تساعد على جلب ما ينفع، ودفع ما يضره، يستطيع بها أن يميز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، ويصدر أحكاماً تقوم سلوكه، وتحدد اتجاهه؛ ليسترشد بها في بناء نفسه، ويربطه بمجتمعه، وتنأى به عن الانحراف[٥].

---

(١) سورة الانفطار: ١

(٢) سورة الروم: ٣٠

(٣) التعريفات، الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط ١/ ١٤٠٣ هـ، ص ١٦٨.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير . تحقيق: محمود الطناحي، المكتبة العلمية/ بيروت، ط ١٣٩٩ م، ٣/ ٤٥٧.

(٥) عبد الوهاب عيسى يوسف التوم، مفهوم الفطرة الإنسانية في المنظور الإسلامي، السودان، مجلة المنبر، المنبر، هيئة علماء السودان، عدد ٢٣، أكتوبر ٢٠١٦.

وجاء في تعريفها أنها: " ما جبل عليه الإنسان من الأشياء الظاهرة والباطنة في أصل الخلق، التي تتطلبها إنسانيته وبشريته وكل خروج أو إخلال بها هو خروج على إنسانيته وإخلاف بها، وكل محافظة عليها هو محافظة على إنسانيته وبشريته "(١).

وعلق ابن عبد البر – رحمه الله – على الحديث الشريف: « كل مولود يولد على الفطرة... »(٢)، فقال: "الفطرة المذكورة في هذا الحديث، اختلف العلماء فيها، واضطربوا في معناها، وذهبوا في ذلك مذاهب متباينة، ونزعت كل فرقة منهم في ذلك بظاهر آية، ونص سنة "(٣).

وإليك مجمل هذه الأقوال، ثم يأتي تفصيلها – إن شاء الله تعالى –:

١– أن الفطرة هي الإسلام.

٢– أنها الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه.

٣– أنها البداءة التي ابتدأهم عليها.

٤– أن الله فطرهم على الإنكار والمعرفة، وعلى الكفر والإيمان.

٥– أنها ما يقلب الله قلوب الخلق إليه مما يريد ويشاء، فهي ما قضاه الله وقدره لعباده من أول أحوالهم إلى آخرها(٤).

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) رواه البخاري في، ٢٧ كتاب الجنائز، ٧٩ – باب إذا أسلم الصبي فمات...، حديث (١٣٥٨)، ومسلم، ٤٦ – كتاب القدر، معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث (٢٦٥٨).

(٣) التمهيد، ابن عبد البر، تحقيق: بشار عواد، مؤسسة الفرقان/ لندن، ط ١/ ١٤٣٩ هـ، ١١/ ٣٤٠.

(٤) المرجع السابق، ١١/ ٣٤٠، وما بعدها.

المطلب الثالث

الأدلة القرآنية والنبوية التي ورد فيها ذكر الفطرة

ويشتمل المطلب الثالث على نقطتين:

النقطة الأولى: الأدلة القرآنية التي ورد فيها ذكر الفطرة

لقد ورد ذكر كلمة " الفطرة " في كتاب الله العزيز، مرة واحدة ؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1].

أما عن تصاريف كلمة الفطرة فقد وردت في كتاب الله ﷻ في غير ما موضع، وهي بالمعنى اللغوي ولا علاقة لها ببحثنا.

مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾[2]

وقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[3]

وقوله: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾[4]

النقطة الثانية: الأدلة النبوية التي ورد فيها ذكر الفطرة

قد ورد ذكر " الفطرة " في عدة أحاديث عن النبي ﷺ، وسأذكر هنا بعضها:

١- فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « كل مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ[5]، هَلْ

---

(١) سورة الروم ٣٠

(٢) سورة الإسراء: ٥١.

(٣) سورة فاطر: ١.

(٤) سورة الإنفطار: ١.

(٥) جاء في القاموس: " الجمعاء من البهائم: التي لم يذهب من بدنها شيء " مرجع سابق (ص ٩١٧).

تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟[1] » ثُمَّ يَقُولُ: أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ .. ﴾[2].[3]

وفي لفظ لمسلم: « ما من مولود يولد إلا على وهو على الملة »، وفي لفظ آخر: « إلا على هذه الملة حتى يبين عنه لسانه »، وفي لفظ آخر له أيضاً: « كما تنتجون الإبل، فهل تجدون فيها جدعاء؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها، قالوا: يا رسول الله! أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: الله أعلم بمن كانوا عاملين »[4]. وفي لفظ لابن حبان: « ما من مولود يولد إلا على فطرة الإسلام حتى يعرب »[5].

٢- حديث مالك بن صعصعة ﷺ ، في المعراج، وفيه: « ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك »[6]، وفي لفظ لمسلم: « فأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر فقيل لي: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربته فقال: هديت الفطرة أو أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر لغوت أمتك »[7].

٣- حديث عبدالرحمن بن أبزى ﷺ قال: « كان النبي ﷺ إذا أصبح قال: أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، وملَّة أبينا إبراهيم حنيفاً

---

(١) قال في القاموس: " الجدع... قطع الأنف أو الأذن أو اليد أو الشفة " (ص ٩١٤).

(٢) سورة الروم: ٣٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، ٢٧تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية الكبرى ببولاق/ القاهرة، ط ١/ ١٣١١ هـ، ٢/ ٩٤، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات...، حديث (١٣٥٨).

(٤) صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط/ ١٣٧٤هـ، ٤/ ٢٠٨٤، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث (٢٦٥٨).

(٥) رواه ابن حبان، تحقيق: محمد علي سونمز، دار ابن حزم/ بيروت، ط ١/ ١٤٣٣هـ، ٥/ ٤٢ برقم (١٣٢). (١٣٢).

(٦) صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، حديث (٣٨٨٧).

(٧) صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب الإسراء...، حديث (١٦٨).

مسلماً »[١].

٤- حديث حذيفة ﷺ أنه رأى رجلاً لا يتم الركوع والسجود فقال: « ما صليتَّ ولو متَّ، مت على غير الفطرة التي فطر الله محمداً ﷺ »[٢].

٥- وعن البراء بن عازب ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، اللهم أمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به »[٣].

٦- حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « الفطرة خمسٌ – أو خمس من الفطرة –: الختان والاستحداد ونتف الإبط وتقليم الأظفار وقص الشارب »[٤].

٧- حديث أبي أيوب ﷺ عن النبي ﷺ : « لاتزال أمتي بخير أو على الفطرة، ما لم يؤخروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم »[٥].

٨- حديث معاذ ﷺ أنه قال: « بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، إذ سمع منادياً يقول: الله أكبر الله أكبر، فقال: على الفطرة، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: شهد بشهادة الحق قال: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال: خرج من النار، انظروا فستجدونه إما راعياً معزباً، و إما مكلبا فنظروه، فوجدوه راعياً حضرته الصلاة فنادى بها »[٦]. وجاء نحوه عن أنس[١] وغيره، رضي الله عنهم.

---

(١) المسند، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: عادل مرشد، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط ١/ ١٤٢١ هـ، ٢٤/ ٧٧، حديث رقم (١٥٣٦٠) مسند عبدالرحمان الخزاعي.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب إذا لم يتم الركوع، حديث (٧٩١).

(٣) رواه البخاري – كتاب الوضوء – باب فضل من بات على الوضوء، حديث (٢٤٧).

(٤) رواه البخاري – كتاب اللباس – باب قص الشارب، حديث (٥٨٨٨)، ومسلم – كتاب الطهارة – باب خصال الفطرة، حديث (٢٥٧).

(٥) رواه أحمد (٤١٦/٥) حديث (٢٣٥٢٤).

(٦) رواه أحمد (٢٤٧/٥)، حديث (٢٢١٣٠).

المبحث الثاني

أهم معاني الفطرة والقول الراجح فيها

ذهب كثير من العلماء إلى أن الفطرة هي الإسلام، وهذا هو قول أبي هريرة ﷺ وابن شهاب الزهري وهو قول مجاهد وعكرمة وقتادة وسعيد ابن جبير والضحاك وابن زيد وإبراهيم النخعي وغيرهم[٢]، وهو الصحيح عند أحمد[٣]، وقول البخاري[٤]، ورجحه ابن تيمية[٥]، وابن القيم[٦]، والشوكاني[٧]، رحمهم الله.

وقالوا كذلك: هو المعروف عند عامة السلف، وأهل العلم بالتأويل، وقد أجمعوا في قوله تعالى:﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ ﴾ على أن قالوا: فطرة الله: دين الله الإسلام، وقال عكرمة ومجاهد والحسن وإبراهيم والضحاك وقتادة في قول الله ﷻ : ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ ﴾ قالوا: دين الله الإسلام، ﴿ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ﴾ قالوا: لدين الله[٨].

واستدل أصحاب هذا القول بعدة أدلة منها:

١- قول أبي هريرة ﷺ في هذا الحديث: اقرأوا إن شئتم: ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ

---

(١) رواه أحمد (٢٦٩/٣)، حديث (١٣٨٣٦).

(٢) انظـر: تفسـير الطبـري، تحقيـق: د/ عبـدالله التركـي، دار هجـر للطباعـة/ القـاهرة، ط ١/ ١٤٢٢ هـ (١٨٣/١٠-١٨٤).

(٣) شفاء العليل لابن القيم، دار المعرفة/ بيروت، ط/ ١٣٩٨ هـ، (ص ٤٨١).

(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿لا تبديل لخلق الله﴾.

(٥) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، تحقيق: د/ محمد رشاد سالم، ط ٢/ ١٤١١ هـ، (٣٧١/٨-٣٧٢).

(٦) شفاء العليل، ابن القيم، مرجع سابق، (ص ٤٧٣).

(٧) نيل الأوطار، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمد الصبابطي، دار الحديث/ القاهرة، ط ١/ ١٤١٣ هـ (٢٢٦/٧).

(٨) انظر تفسير الطبري، مرجع سابق، (١٨٢/١٠-١٨٣)، والتمهيد، ابن عبد البر، مرجع سابق، (٧٢/١٨)، وشفاء العليل، مرجع سابق، (ص٤٧٣-٤٧٤).

ٱلنَّاسَ ﴾[1]، ففسر ﷺ الفطرة في الحديث بهذه الآية، وقد سبق تفسيرها عن جماعة من السلف.

٢- واحتجوا كذلك بحديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال للناس يوماً: « ألا أحدثكم بما حدثني الله في كتابه أن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين، وأعطاهم المال حلالاً، لا حرام فيه، فجعلوا مما أعطاهم الله حلالاً وحراماً»[2].

فبين النبي ﷺ أن الله ﷻ خلق عباده على الإسلام، وأنهم حنفاء، بقوله: (حنفاء مسلمين)، بل إن كلمة حنيف وحدها -ولو لم يثبت تقييدها بالإسلام- تعني في كلام العرب: المستقيم المخلص، ولا استقامة أكثر من الإسلام، وروي عن الحسن والضحاك والسدي قالوا: الحنيفية: حج البيت، وهذا كله يدل على أن الحنيفية: الإسلام[3].

وقال الشاعر:

أخليفــة الرحمن إنّا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً
عرب نرى الله في أموالنا حــق الزكاة منزلاً تنزيلاً

فهذا وصف الحنيفية بالإسلام، وهو أمر واضح لا خفاء فيه[4].

٣- ومن أدلتهم كذلك ما سبق من ذكر الروايات في حديث أبي هريرة ففي رواية: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة »، وفي رواية: « ما من مولود يولد إلا وهو على

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز - باب إذا أسلم الصبي فمات...، حديث (١٣٥٨)، ومسلم - كتاب القدر، معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث (٢٦٥٨).
(٢) التمهيد، ابن عبد البر، مرجع سابق، (٧٣/١٨)، ولم أجده بهذا اللفظ.
(٣) درء التعارض، ابن تيمية، مرجع سابق، (٣٦٩/٨-٣٧٠).
(٤) المرجع السابق (٣٧١/٨).

الملة »، وفي رواية أخرى: «ما من مولود يولد إلا على فطرة الإسلام»[١].

قال ابن القيم: "فهذا صريح بأنه يولد على ملة الإسلام كما فسره ابن شهاب راوي الحديث، واستشهاد أبي هريرة بالآية يدل على ذلك "[٢].

وقد سئل ابن شهاب – رحمه الله – عن رجل عليه رقبة مؤمنة أيجزي أن يعتقه وهو رضيع؟ قال: نعم، لأنه ولد على الفطرة[٣]، فدل على أن الفطرة عنده بمعنى الإسلام لأنه شرط في الرقبة المعتقة.

٤– ومن الأدلة أيضاً أنه لو لم يكن المراد بالفطرة الإسلام لما سألوا عقيب ذلك: "أرأيت من يموت من أطفال المشركين؟ "، لأنه لو لم يكن هناك ما يغيّر تلك الفطرة لما سألوه. والعلم القديم وما بجري مجراه لا يتغير وقوله " فأبواه يهودانه "، بيَّن فيه أنهم يغيرون الفطرة التي فطر عليها.[٤]

٥– وأيضاً فإنه شبه ذلك بالبهيمة التي تولد مجتمعة الخلق لا نقص فيه، ثم تجدع بعد ذلك، فعلم أن التغيير وارد على الفطرة السليمة التي ولد عليها[٥].

٦– وأيضا فإنه أضاف الفطرة إليه إضافة مدح لا إضافة ذم، فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة. كدين الله وبيته وناقته[٦].

٧– وأيضاً فإن هذا تفسير السلف[٧].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز – باب إذا أسلم الصبي فمات...، حديث (١٣٥٨)، ومسلم – كتاب القدر، معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث (٢٦٥٨).

(٢) شفاء العليل، مرجع سابق، (ص ٤٧٣).

(٣) المرجع السابق، (ص ٤٧٣).

(٤) درء التعارض (٣٧١/٨)، وشفاء العليل (ص ٤٧٥).

(٥) درء التعارض (٣٧٢/٨)، وشفاء العليل (ص ٤٧٥).

(٦) درء التعارض (٣٧٢/٨)، وشفاء العليل (ص ٤٧٥).

(٧) شفاء العليل (ص ٤٧٥).

٨- وبقوله ﷺ : "خمس من الفطرة فذكر منها قص الشارب[١]، وهو من سنن الإسلام[٢].

وهذا ما تيسر جمعه من أدلة هذا الفريق وهي أدلة قوية، تؤدي إلى ترجيح هذا القول وتقديمه على غيره، ولكن يبقى هناك سؤال يطرح نفسه:

ما معنى الإسلام، هل هو الإسلام التفصيلي أم الإجمالي؟

ويجيب عن هذا السؤال ابن تيمية، حيث يقول – رحمه الله – : (وإذا قيل: إنه ولد على فطرة الإسلام، أو خلق حنيفاً ونحو ذلك، فليس المراد به أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾[٣]، ولكن فطرته مقتضية موجبة لدين الإسلام، لمعرفته ومحبته.

فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئاً بعد شيء، بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض.

وليس المراد مجرد قبول الفطرة لذلك أكثر من غيره، كما أن كل مولود يولد فإنه على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة، فيشتهي اللبن الذي يناسبه[٤].

فبين – رحمه الله – أن المقصود بها أحكام الإسلام إجمالاً من غير تفصيل، ويبين معالم هذه الفطرة ما كان عليه النبي ﷺ قبل البعثة من الوحدانية وحسن الخلق وغير ذلك.

---

(١) رواه البخاري – كتاب اللباس – باب قص الشارب، حديث (٥٨٨٨)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، حديث (٢٥٧).

(٢) تفسير القرطبي، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، دار الكتب المصرية/ القاهرة، ط ٢/ ١٣٨٤ هـ، (٢٥/١٤).

(٣) سورة النحل: ٧٨.

(٤) درء التعارض، مرجع سابق، (٣٨٣/٨).

القول الثاني: إن الفطرة هي الخلقة التي خلق الله المولود عليها في المعرفة بربه، فكأنه قال: كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة، بخلاف البهائم التي لا تصل بخلقها إلى معرفة ربها، نسبه ابن عبد البر إلى جماعة من أهل الفقه والنظر(١).

وهذا القول هو الذي رجحه بن عبد البر – رحمه الله – حيث قال: " هذا القول أصح ما قيل في معنى الفطرة"(٢). وهو ما اختاره ابن عطية في تفسيره(٣) وأبو العباس القرطبي(٤) وغير واحد.

وأنكر من قال بهذا القول: أن يكون المولود يفطر على إيمان أو كفر ومعرفة.

واحتجوا بأدلة منها:

١– دليل لغوي، وهو أن الفطرة معناها الخلقة، والفاطر: الخالق، بقول الله ﷻ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٥)، يعني خالقهن، وبقوله: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾(٦) يعني: خلقني، وقوله: ﴿ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾(٧)، يعني: خلقهن.

٢– واحتجوا كذلك بقوله ﷺ في حديث أبي هريرة: " كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون بها من جدعاء "(٨)، ووجه الاستدلال: أنه مقل قلوب بني آدم بالبهائم؛ لأنها تولد كاملة الخلق ليس فيها من نقصان ثم تقطع آذانها بعد وأنوفها،

---

(١) التمهيد، ابن عبد البر، مرجع سابق، (٦٨/١٨).

(٢) المرجع السابق، (٧٠/١٨).

(٣) تفسير القرطبي، مرجع سابق، (٢٩/١٤).

(٤) المرجع السابق، (٢٩/١٤).

(٥) سورة فاطر: ١

(٦) سورة يس: ٢٢

(٧) سورة الأنبياء: ٥٦

(٨) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات...، حديث (١٣٥٨)، ومسلم، كتاب القدر، معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث (٢٦٥٨).

فيقال: هذه بحائر وهذه سوائب، فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفر حينئذ ولا إيمان ولا معرفة ولا إنكار كالبهائم السالمة[١].

٣- واحتجوا أيضاً بحديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ حاكياً عن ربه ﷻ: « إني خلقت عبادي حنفاء »[٢]، قال بن عبد البر: يعني على استقامة وسلامة، والحنيف في كلام العرب المستقيم السالم[٣].

ويجاب عن هذا القول:

أولاً: يُبين مقتضى قولهم وما يؤول إليه ابن تيمية حيث يقول: "صاحب هذا القول إن أراد بالفطرة التمكن من المعرفة والقدرة عليها فهذا ضعيف، فإن مجرد القدرة على ذلك لا يقتضي أن يكون حنيفاً، ولا أن يكون على الملة ولا يحتاج أن يذكر تغيير أبويه لفطرته حتى يُسأل عمن مات صغيراً، ولأن القدرة في الكبير أكمل منها في الصغير، وهو لما نهاهم عن قتل الصبيان فقالوا: إنهم أولاد المشركين. قال: أوليس خياركم أولاد المشركين؟ ما من مولود إلا يولد على الفطرة "، ولو أريد القدرة لكان البالغون كذلك مع كونهم مشركين مستوجبين للقتل وإن أراد بالفطرة القدرة على المعرفة مع إرادتها فالقدرة الكاملة مع الإرادة التامة تستلزم وجود المراد المقدور.

فدل على أنهم فطروا على القدرة على المعرفة وإرادتها وذلك مستلزم للإيمان"[٤].

ثانيا: ويجاب عن دليلهم اللغوي بأن الفطرة في اللغة لها عدة معان، وهذا المعنى ليس هو المراد هنا.

ثالثا: وأما عن حديث أبي هريرة فقد سبق أن بينا أنه دليل لأصحاب القول الأول وبقية الحديث واستدلال أبي هريرة بالآية يدل على أن الفطرة فيه بمعنى الإسلام.

---

(١) التمهيد، مرجع سابق، (٦٨/١٨).

(٢) المرجع السابق، (٧٣/١٣).

(٣) المرجع السابق، (٧٠/١٨-٧١).

(٤) درء التعارض، مرجع سابق، (٣٨٥/٨)، وشفاء العليل، مرجع سابق، (ص٤٧٩ – ٤٨٠).

رابعا: وأما عن قول النبي ﷺ : (حنفا) وإن قيل معناها: المستقيم السالم، فالإسلام هو غاية الاستقامة والسلامة وقد سبق أن بينا أن معنى (حنيفاً) أي: مسلماً.

قال ابن تيمية: " فأخبر أنه خلقهم حنفاء، وذلك يتضمن معرفة الرب ومحبته وتوحيده فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية وهي معنى قوله (لا إله إلا الله) "[١].

القول الثالث: أن معنى قوله: (يولد على الفطرة) أي: البداءة التي ابتدأهم عليها، أي: ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ من ميولهم عن آبائهم واعتقادهم[٢].

فهم يقصدون ثلاثة تقادير إذ التقادير خمسة[٣] وهي:

١- التقدير الأزلي.

٢- التقدير بكتابة الميثاق.

٣- التقدير العمري عند تخليق النطفة في الرحم.

٤- التقدير الحولي في ليلة القدر.

٥- التقدير اليومي.

فلعلهم يقصدون التقادير الثلاثة الأخيرة، وهذا ظاهر من أدلتهم، والله أعلم.

فكأنه قال ﷺ : كل مولود يولد على ما ابتدأه الله عليه من الشقاء والسعادة مما يصير إليه.

فمرادهم ما جبل عليه الإنسان في علم الله تعالى من السعادة والشقاء فكل منهم صائر في العاقبة إلى ما فطر عليه.

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف/ السعودية، ط/ ١٤٢٥ هـ (٣٤٥/١٦).

(٢) التمهيد، ابن عبد البر، مرجع سابق، (٧٨/١٨)، تفسير القرطبي، مرجع سابق، (٢٥/١٤).

(٣) انظر معارج القبول، حافظ الحكمي، تحقيق: دار ابن القيم، ط ١/ ١٤١٠ هـ، (٢٣٠/٢ – ٢٣٧)

وقال ابن عبد البر: " وهذا المذهب شبيه بما حكاه أبو عبيد عن عبدالله بن المبارك أنه سئل عن قول النبي ﷺ : « كل مولود يول على الفطرة » فقال: يفسره الحديث الآخر حين سئل عن أطفال المشركين فقال: « الله أعلم بما كانوا عاملين ».

وقال المروذي: " ولقد كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه"، وما رسمه مالك في الموطأ وذكر في أبواب القدر فيه من الآثار ما يدل على أن مذهبه في ذلك نحو هذا. والله أعلم"[١] أهـ.

واحتجوا بما يلي:

١- بما روي عن ابن عباس، قال: " لم أكن أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر، قال أحدهما: أنا فطرتها – أي ابتدأتها "[٢].

٢- وبما روي عن كعب القرظي في قول الله تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ﴾[٣]، قال: من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيره للضلالة وإن عمل بأعمال الهدى، ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى وإن عمل بأعمال الضلالة، ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم رده الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه، قال: وكان من الكافرين. وابتدأ خلق السحرة على الهدى، وعملوا بعمل الضلالة ثم هداهم الله إلى الهدى والسعادة وتوفاهم عليها مسلمين[٤]. وجاء معناه مرفوعاً من حديث عائشة ومن حديث عبدالله بن عمرو[٥].

٣- وكذلك احتجوا بما روي عن علي ﷺ في بعض دعائه: اللهم جبار القلوب

---

(١) التمهيد، مرجع سابق (٧٩/١٨).

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق (١٥٨/٥)، تفسير القرطبي، مرجع سابق، (٢٥/١٤-٢٦)، التمهيد، مرجع سابق (٨٠/١٨).

(٣) سورة الأعراف: ٣٠.

(٤) تفسير الطبري (٤٦٦/٥)، تفسير القرطبي (٢٥/١٤-٢٦)، التمهيد (٨٠/١٨).

(٥) انظر: تفسير القرطبي (٢٥/١٤-٢٦).

على فطرتها شقيها وسعيدها[١].

٤- واحتجوا أيضاً بما ذكره أبو عبدالله محمد بن نصر المروزي[٢]، والإمام مالك[٣]، رحمهما الله بإسناديهما عن عمر ﷺ أنه سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[٤]، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ: « إن الله تبارك وتعالى خلق آدم. ثم مسح ظهره بيمينه فستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية. فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله. ففيم العمل؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: إن الله إذا خلق العبد للجنة، استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيد خله به الجنة. وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار».

وأجيب عن هذا القول بما يلي:

أولاً: حقيقة هذا القول أن كل مولود فإنه يولد على ما سبق في علم الله أنه صائر إليه. ومعلوم أن جميع المخلوقات بهذه المثابة. فجميع البهائم مولودة على ما سبق في علم الله لها. والأشجار مخلوقة على ما سبق في علم الله. وحينئذ فيكون كل مخلوق قد خلق على الفطرة.

ثانيا: لو كان المراد ذلك لم يكن لقوله: « فأبواه يهودانه » معنى. فإنهما فعلا به ما هو الفطرة التي ولد عليها. وعلى هذا القول بين التهويد والتنصير وبين تلقي

---

(١) التمهيد، (٧٩/١٨)، شفاء العليل، مرجع سابق، (ص ٤٨٠).

(٢) التمهيد، مرجع سابق، (٨٢/١٨).

(٣) الموطأ، الإمام مالك بن أنس، تحقيق: بشار عواد، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط/ ١٤١٢ هـ، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر (٢).

(٤) سورة الأعراف: ١٧٢.

الإسلام وتعليمه وبين تعليم سائر الحرف والصنائع، فإن ذلك كله واحد فيما سبق به العلم.

ثالثا: تمثيله ذلك بالبهيمة التي ولدت عليها جمعاء ثم جدعت يبيّن أن أبويه غيّرا ما وُلد عليه.

رابعا: وأيضا فقوله: « على هذه الملة » وقوله: « إني خلقت عبادي حنفاء » مخالف لهذا.

خامسا: وأيضاَ فلا فرق بين حال الولادة وسائر أحوال الإنسان، فإنه من حين كان جنيناً إلى ما لا نهاية له من أحواله على ما سبق في علم الله. فتخصيص الولادة بكونها على مقتضى القدر تخصيص بلا مخصص. وقد ثبت في الصحيح أنه قيل حين نفخ الروح فيه: «يكتب أجله وعمله وشقي أو سعيد »[1]. فلو قيل كل مولود تنفخ فيه الروح على الفطرة لكان أشبه بهذا المعنى مع أن النفخ هو بعد الكتابة[2].

سادسا: أما عن استدلالهم بقول ابن عباس فهو معنى من معاني الفطرة في اللغة وليس هو المراد هنا.

سابعا: وأما عن القول المنقول عن القرظي فيقول ابن القيم – رحمه الله – مجيباً عنه: "فهذا المنقول عن محمد بن كعب يبين أن الذي ابتدأهم عليه هو ما كتب أنهم صائرون إليه، وأنهم قد يعملون قبل ذلك غيره. وأن من ابتدئ على الضلالة أي: كتب أن يموت ضالاً فقد يكون قبل ذلك عاملاً بعمل أهل الهدى، وحينئذ فمن ولد على الفطرة السليمة المقتضية للهدى لا يمنع أن يعرض لها ما يغيرها فيصير إلى ما سبق به القدر، كما في الحديث الصحيح: « إن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد – باب قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾، حديث (٧٤٥٤).

(٢) شفاء العليل لابن القيم (ص ٤٨٠).

أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة »[١]، وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾، قال: كما كتب عليكم تكونون، وقال مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ شقي وسعيد، وقال أيضًا: يبعث المسلم مسلمًا والكافر كافرًا، وقال أبو العالية: عادوا إلى علمه فيهم ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ قلت[٢] : هذا المعنى صحيح في نفسه دل عليه القرآن والسنة والآثار السلفية وإجماع أهل السنة، وأما كونه هو المراد بالآية ففيه ما فيه، والذي يظهر من الآية أن معناها معنى نظرائها وأمثالها من الآيات التي يحتج الله سبحانه فيها على النشأة الثانية بالأولى، وعلى المعاد بالمبدأ، بالمبدأ، مجازيا احتجاج في غاية الاختصار والبيان[٣] أهـ.

ثامنا: وأما عن نسبة هذا القول إلى الإمام مالك وأحمد، فقال ابن تيمية «أئمة السنة مقصودهم أن الخلق صائرون إلى ما سبق في علم الله فيهم من إيمان وكفر، كما في الحديث الآخر أن الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرًا، والطبع الكتاب، أي كتب كافرًا، كما في الحديث الصحيح: « فيكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد »[٤]، وليس إذا كان الله كتبه كافرًا يقتضي أنه حين الولادة كافر، بل يقتضي أنه لا بد أن يكفر، وذلك الكفر هو التغيير، كما أن البهيمة التي ولدت جمعاء قد سبق في علمه أنها تجدع كتب أنها مجدوعة بجدع يحدث لها بعد الولادة، ولا يجب أن تكون عند الولادة مجدوعة[٥] اهـ.

ثم أثبت ابن القيم –رحمه الله– أن كلام أحمد في أجوبة له أخرى يدل على أن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أي: ابن القيم.

(٣) شفاء العليل (ص ٤٨٤).

(٤) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾، حديث (٧٤٥٤).

(٥) شفاء العليل، مرجع سابق، (ص ٤٨١).

الفطرة عنده الإسلام، كما ذكر محمد بن نصر أنه آخر قوليه.

ثم نقل عن الإمام أحمد أنه سأله ابنه عبد الله عن سبي أهل الحرب فقال: إذا لم يكن معه أبواه فهو مسلم قلت: يجبرون على الإسلام إذا كان معه أبواه أو أحدهما؟ قال: نعم، ثم قال الخلال: وقد روى هذه المسألة عن أبي عبد الله خلقٌ كلهم قال: إذا كان مع أحد أبوية فهو مسلم، وهؤلاء النفر سمعوا من أبي عبد الله بعد الحبس، وبعضهم قبل وبعد، والذي أذهب إليه ما رواه الجماعة(١).

فالإمام أحمد – رحمه الله – كثيرًا ما يحتج في أجوبة له بالحديث: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه» على أنه إنما يصير كافرًا بأبوية، فإذا لم يكن مع أبوين كافرين فهو مسلم فلو لم تكن الفطرة الإسلام لم يكن بعدم أبوية يصير مسلمًا، بل نقل عنه الميموني: أن الفطرة هي الدين وهي الفطرة الأولى، قال الخلال: «أخبرني الميموني أنه قال لأبي عبد الله: كل مولود يولد على الفطرة» يدخل عليه إذا كان أبواه. يعني أن يكون حكمه حكم ما كانوا صغارًا فقال لي: نعم ولكن يُدخل عليك في هذا –إلى أن قال–: ينظر أيضًا إلى الفطرة الأولى التي فطر الناس عليها، قلت له: فما الفطرة الأولى أهي الدين؟ قال: نعم فمن الناس من يحتج بالفطرة الأولى مع قول النبي ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة»، قلت لأبي عبد الله: فما تقول لأعرف قولك؟ قال: أقول إنه على الفطرة الأولى(٢).

قال ابن تيمية: « فجواب أحمد أنه على الفطرة الأولى، وقوله: إنها الدين يوافق القول بأنه على دين الإسلام »(٣).

وأما قول أحمد: إنه على ما فطر من شقاوة وسعادة، فمن أصحابه من قال: هذا قول قديم له ثم تركه، ومنهم من جعل المسألة على روايتين وأطلق، ومنهم من حكي

(١) المرجع السابق، (ص ٤٨١ – ٤٨٢).
(٢) شفاء العليل، ابن القيم، مرجع سابق، (ص ٤٨٢).
(٣) المرجع السابق، (ص ٤٨٢ – ٤٨٣).

عنه فيها ثلاث روايات الثالثة الوقف[١].

قال ابن تيمية – رحمه الله –: "والإجماع والآثار المنقولة عن السلف لا تدل إلا على القول الذي رجحناه، وهو أنهم على الفطرة، ثم صاروا إلى ما سبق في علم الله فيهم من سعادة وشقاوة لا يدل على أنهم حين الولادة لم يكونوا على فطرة سليمة مقتضية للإيمان ومستلزمة له لولا العارض "[٢].

القول الرابع: أن معنى قوله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة »: أن الله فطرهم على الإنكار والمعرفة وعلى الكفر والإيمان، فأخذ من ذرية آدم الميثاق حين خلقهم، فقال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾، قالوا جميعًا: ﴿ بَلَىٰ ﴾ فأما أهل السعادة فقالوا: بل على معرفة له طوعًا من قلوبهم، وأما أهل الشقاء فقالوا: بل كرها لا طوعًا، وهو قول إسحاق بن راهوية وحماد بن سلمة، والخطابي وابن قتيبة[٣] وابن حبان.

واستدلوا بعدة أدلة منها:

فمن القرآن:

١- قالوا وتصديق ذلك قوله: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[٤]، قالوا: وكذلك قوله: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[٥]

٢- واحتج بقول أبي هريرة: اقرءوا وإن شئتم ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا

(١) المرجع السابق، (ص ٤٨٣).

(٢) درء التعارض، مرجع سابق، (٤١٠/٨)، شفاء العليل (ص ٤٨٣).

(٣) انظر: درء التعارض (٤١٧/٨)، صحيح ابن حبان، مرجع سابق، (٣٤٢/١).

(٤) سورة آل عمران: ٨٣

(٥) سورة الأعراف: ٢٩ – ٣٠

بَدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[1] قال إسحاق: يقول لا تبديل لخلقته التي جبل عليها ولد آدم كلهم: يعني من الكفر والإيمان والمعرفة والإنكار.

٣- واحتج إسحاق أيضًا بقول الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال إسحاق: أجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد استنطقهم وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ ﴾ فقال: انظروا ألا تقولوا: ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ ﴾[2].

٤- واحتج إسحاق أيضًا بحديث أبي بن كعب في قصة الغلام الذي قتله الخضر. فعن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: « الغلام الذي قتله الخضر طبعه الله يوم طبعه كافرًا »[3]. قال إسحاق: وكان الظاهر ما قال موسى: أقتلت نفسًا زكية؟ فأعلم الله الخضر ما كان الغلام عليه في الفطرة التي فطره عليها؛ لأنه كان قد طبع يوم طبع كافرًا.

ثم روى إسحاق بإسناده إلى ابن عباس أنه كان يقرأ: (وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين)[4].

قال إسحاق: " فلو ترك النبي عليه السلام الناس ولم يبين لهم حكم الأطفال – لم يعرفوا المؤمنين منهم من الكافرين؛ لأنهم لا يدرون ما جبل كل واحد منهم عليه حين أخرج من ظهر آدم؛ فبين لهم النبي ﷺ حكم الطفل في الدنيا، فقال: « أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه »، يقول: أنتم لا تعرفون ما طبع عليه في الفطرة الأولى، ولكن حكم الطفل في الدنيا حكم أبويه، فاعرفوا ذلك بالأبوين، فمن كان صغيرًا بين أبوين

---

(١) سورة الروم: ٣٠

(٢) التمهيد (٨٤/١٨)، وشفاء العليل (ص ٤٨٥).

(٣) رواه مسلم – كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر، حديث (٢٣٨٠).

(٤) رواه مسلم – كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر، حديث (٢٣٨٠).

كافرين ألحق بحكمهما، ومن كان صغيرًا بين أبوين مسلمين ألحق بحكمهما، وأما إيمان ذلك وكفره مما يصير إليه فعلم ذلك إلى الله، ويعلم ذلك فضل الخضر موسى، إذا أطلعه الله عليه في ذلك الغلام وخصه بذلك العلم»[١].

٥- واحتج إسحاق أيضًا بحديث عائشة حين مات صبي من الأنصار بين أبوين مسلمين، فقالت عائشة: طوبي له عصفور من عصافير الجنة، فرد عليها النبي ﷺ فقال: « صه يا عائشة! وما يدريك أن الله خلق الجنة وخلق لها أهلها، وخلق النار وخلق لها أهلها »[٢]، قال إسحاق: فهذا الأصل الذي يعتمد عليه أهل العلم[٣].

وأجيب عن هذا القول بما يلي:

أولاً: أما عن قوله: بأن النبي ﷺ بيّن الناس حكم الأطفال، فقال ابن عبد البر: "ما بيّن رسول الله ﷺ لأحد من أمته حكم الأطفال الذين يموتون صغارًا بيانًا يقطع حجة العذر، بل اختلفت الآثار عنه في ذلك"[٤].

وقال أيضًا: وأما الغلام الذي قتله الخضر فأبواه مؤمنان لا شك في ذلك، فإن كان طفلاً ولم يكن كما قال بعض أهل العلم رجلاً قاطعًا للسبيل، فمعلوم أن شريعتنا وردت بأن كل أبوين مؤمنين لا يحكم لطفلهما الصغير بحال الكفر ولا يحل قتله بإجماع. وكفى بهذا حجة في تخصيص غلام الخضر.

وقد أجمع المسلمون من أهل السنة وغيرهم – إلا المجبرة – أن أولاد المؤمنين في الجنة، فكيف يجوز الاحتجاج بقصة الغلام الذي قتله الخضر اليوم في هذا الباب.

ثانيًا: وأما حديث عائشة الذي احتج به إسحاق فإنه حديث ضعيف، انفرد به

(١) التمهيد، ابن عبد البر، (١٨/٨٥-٨٧).
(٢) المرجع السابق، (١٨/٨٨).
(٣) المرجع السابق، (١٨/٨٨).
(٤) المرجع السابق، (١٨-٨٧).

طلحة بن يحيى[١]، فأنكروه عليه وضعفوه من أصله،

ثالثا: وقول إسحاق في هذا الباب لا يرضاه الحذاق الفقهة من أهل السنة، وإنما هو قول المجبرة[٢].

وقال ابن تيمية: بعد كلام إسحاق هذا " أصل مقصود الأئمة صحيح، وهو منع احتجاج القدرية بهذا الحديث على نفي القدر، لكن لا يحتاج مع ذلك أن يفسر القرآن والحديث إلا بما هو مراد الله ورسوله، ويجب أن يتبع في ذلك ما دل عليه الدليل، وما ذكروه أن الله فطرهم على الكفر والإيمان والمعرفة والنكرة، إن أرادوا به أن الله فطرهم على الكفر والإيمان والمعرفة والنكرة، إن أرادوا به أن الله سبق في علمه وقدره وخلق فهذا حق تردّه القدرية. فغلاتهم ينكرون العلم، وجميعهم ينكرون عموم خلقه ومشيئته وقدرته، وإن أرادوا أن هذه المعرفة والنكرة كانت موجودة بين أخذ الميثاق، كما في ظاهر المنقول عن إسحاق، فهذا يتضمن شيئين: أحدهما: أنهم حينئذ كانت المعرفة والإيمان موجودًا فيهم، كما قال ذلك طوائف من السلف، وهو الذي حكي إسحاق الإجماع عليه.

وفي تفسير الآية نزاع بين الأئمة، وكذلك في خلق الأرواح قبل الأجساد قولان معروفان، لكن المقصود هنا أن هذا إن كان حقًا فهو توكيد لكونهم ولدوا على تلك المعرفة والإقرار فهذا لا يخالف ما دلت عليه الأحاديث من أنه يولد على الملة، وأن الله خلق خلقه حنفاء، بل هو مؤيد لذلك، وأما قول القائل إنهم انقسموا في ذلك الإقرار إلى مطيع وكافر فهذا لم ينقل عن أحد من السلف فيما أعلم إلا عن السدي في تفسيره".

ثم تكلم عن هذا الأمر المنقول عن السدي: " هذا الأثر لا يوثق به فإن في

---

(١) وثقه ابن معين وغيره وقال البخاري: منكر الحديث وقال النسائي: ليس بالقوي (انظر: الميزان للذهبي (٣٤٣/٢). وقال الحافظ في التقريب (ص ٤٦٥): صدوق يخطئ.

(٢) التمهيد، ابن عبد البر، (٨٩/١٨-٩٠).

تفسير السدي أشياء قد عرف بطلان بعضها، وهو ثقة في نفسه، وأحسن أحوال هذا وأمثاله أن يكون كالمراسيل إن كان مأخوذًا عن النبي ﷺ فكيف إذا كان مأخوذًا عن أهل الكتاب، ولو لم يكن في هذا الأثر إلا معارضة لسائر الآثار التي تتضمن التسوية بين جميع الناس في الإقرار لكفى"[١].

رابعا: وأما الإجابة عن قوله – تعالى –: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ فإنما هو في الإسلام الموجود منهم بعد خلقهم كما قال شيخ الإسلام[٢].

القول الخامس: أن الفطرة ما يقلب الله قلوب الخلق إليه مما يريد ويشاء، فقد يكفر العبد ثم يؤمن فيموت مؤمنًا، وقد يؤمن ثم يكفر فيموت كافرًا، وقد يكفر ثم لا يزال على كفره حتى يموت عليه، وقد يكون مؤمنًا حتى يموت على الإيمان، وذلك كله تقدير الله وفطرته لهم[٣].

والفطرة عند هؤلاء ما قضاه الله وقدره لعباده من أول أحوالهم إلى آخرها.

واحتجوا بحديث علي بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات فمنهم من يولد مؤمنًا ويحيى مؤمنًا ويموت مؤمنًا، ومنهم من يولد كافرًا ويحيى كافرًا ويموت كافرًا، ومنهم من يولد مؤمنًا ويحيى مؤمنًا ويموت كافرًا. ومنهم من يولد كافرًا ويحيى كافرًا ويموت مؤمنًا »[٤].

وأجيب عن هذا القول بما يلي:

أولاً: احتجاجهم بالحديث فقد ضعفه ابن عبد البر؛ لأنه انفرد به علي ابن زيد بن

---

(١) شفاء العليل، مرجع سابق، (ص ٤٨٦ – ٤٨٧).
(٢) التمهيد، ابن عبد البر، (٩٣/١٨).
(٣) المرجع السابق، (٩٣/١٨).
(٤) المرجع السابق، (٩٤/١٨).

جدعان، وقد كان شعبة يتكلم فيه[1].

وقال ابن البر: وهذا القول وإن كان صحيحًا في الأصل، فإنه أضعف الأقاويل من جهة اللغة في معنى الفطرة[2].

هذا آخر ما تيسر جمعه من أقوال أهل العلم في معنى الفطرة، وأدلتهم في ذلك، والجواب عن المرجوح منها، وبهذا يتبين جليا صحة القول الأول، والله أعلم.

(١) وقال الحافظ في التقريب: ضعيف. (ص ٦٩٦).

(٢) التمهيد، مرجع سابق، (٩٤/١٨).

المبحث الثالث

مفهوم الفطرة في الفكر الإسلامي ومدى ارتباطها بالإسلام

ويندرج تحت هذا المبحث مطلبان:

المطلب الأول

دلالات معاني الفطرة عند علماء الكلام

إن اختلاف العلماء حول مفهوم الفطرة يمكن رده لأسس لغوية، وشرعية، وبالتالي فإن المعاني اللغوية والاصطلاحية، التي أشرنا إليها حول الفطرة هي ذاتها التي شكلت أرضية التباين وساحة الخلاف، ولهذا جاءت هذه الآراء والتعاريف اجتهادية في ضوء اشتقاقات لفظ الفطرة مما جعل الفطرة قد تحمل مفهوماً معيناً عند العلماء على حسب مرتكزاتهم الفكرية، ولقد تناول علماء الكلام الفطرة بالشرح والتعليق من منظور عقدي، يؤكد أهميتها في الاستدلال على وجود الله، وتحدثوا عنها أثناء استعراض كلامهم في وجوب النظر المؤدي إلى معرفة الله – تعالى –، وأن كل ما نزل به الشرع من أمور التكليف وغيرها موافق لطبيعة النفس الإنسانية، وما خلقت عليه من فطرة، وما وجدت عليه من جبلة.

وفطرة الله عند القاضي عبد الجبار هي: " الدين الذي أراده الله تعالى لخلقه، وهو الإسلام، وعلى هذا فقول الرسول ﷺ: " فأبواه يهودانه أو ينصرانه " دلالة على أن تغيير الدين من فعل الأبوين» أي: أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وغرز في نفسه بذور تنميتها الصحيحة التي توصله إلى ربه، ولكن والديه هم الذين يعدلون به عن ذلك الطريق المستقيم بالتربية الفاسدة والتعليم الخاطئ "[(١)].

أما الجاحظ فيتحدث عن الفطرة عند حديثه عن الهيئة التي خلق الله تعالى الناس عليها فيرى أن الله تعالى خلق الناس وجبلهم على حب المنافع ودفع المضار فطرة منه

(١) المحيط بالتكليف، القاضي عبدالجبار المعتزلي، تحقيق: عمر السيد عزمي، مراجعة: د. أحمد فؤاد، الدار المصرية للتأليف والترجمة/ القاهرة، بدون تاريخ

تعالى فيقول: «أعلم أن الله جل ثناءه خلق خلقه ثم طبعهم على حب اجترار المنافع ودفع المضار... هذا فيهم طبع مركب وجبلة مفطورة لا خلاف بين الخلق فيه، موجود في الإنس والحيوان ولم يدع غيره مدع من الأولين والآخرين وبقدر زيادة ذلك ونقصانه تزيد المحبة والبغضاء فنقصانه كزيادته تميل الطبيعة معهما كميل كفتى الميزان "[١]، فهو يرى أن الفطرة غريزة أوجدها الله تعالى في الطبيعة الإنسانية عن طريقها يستطيع الإنسان أن يميز النافع فيحصله والضار فيجتنبه ولكن النفوس تميل إلى الراحة وحب الشهوات فهو يقول: « والنفس في طبعها حب الراحة والدعة والازدياد والعلو والعز والغلبة والاستطراف والتنوق وجميع ما تستلذ الحواس من المناظر الحسنة والروائح العبقة والطعوم الطيبة والأصوات المونقة والملابس اللذيذة " [٢]، وهذه الصفات وتلك الخلال «تجمعها خلتان غرائز في الفطرة، وكوامن في الطبع جبلة ثابتة، وشيمة مخلوقة على أنها في بعض أكثر منها في بعض، ولا يعلم قدر القلة فيه والكثرة إلا الذي دبرهم.

فمما تقدم يتضح لنا أن الجاحظ يؤكد على أن معرفة الله تعالى أمر يعرفه الإنسان من نفسه بالضرورة؛ لأن الله تعالى فطر الإنسان، وجبله على معرفة الخير واجتناب الشر، وبالتالي الإيمان بالله تعالى ومحبته والإقرار به وتوحيده؛ لأن ذلك هو الخير المحض للإنسان وبه تتحقق سعادته في الدنيا والآخرة، ولكن نظراً لحب النفس الإنسانية للشهوات، والميل إلى الراحة، واستثقالها للعبادة والطاعة وانطمس فيها نور البصيرة، وغابت هذه المعرفة الكامنة في أعماقه تحت هذا الستار الكثيف الذي خيم على النفس فصرفها عن حقيقتها، وهذا أمر يختلف من إنسان لآخر بحسب قدرة كل واحد في مقاومة نفسه، والسيطرة عليها ودور التربية في هذا تعويد النفس على فعل الخيرات بالتدريب والممارسة المستمرة، ووقايتها من الشرور والآثام حتى تظل الفطرة

(١) رسائل الجاحظ، الجاحظ، تحقيق: محمد باسل عيون، دار الكتب العلمية/ بيروت، الرسالة الثانية/ رسالة المعاش والمعاد، ص ١٠٠.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٧٦.

يقظة متجهة إلى فعل الخير مقبلة عليه مفارقة لطريق الشيطان، وكل ما يعمل على طمس نور الفطرة ويؤدي إلى تغييرها وتبديلها، فالتربية هي التي تخرج الإنسان من السلوك الفطري الخالص إلى السلوك الاجتماعي، الذي يعتبر السلوك الفطري أساساً له، فالفطرة بذلك تعتبر أساس التربية.

وقريب من رأي الجاحظ في الفطرة ما عبر عنه ابن القيم عند تفسيره لآية النور «نور على نور» بقوله «نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح ونور الوحي والكتاب فينضاف أحد النورين إلى الآخر فيزداد العبد نوراً على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه من الأثر ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة، ميزه بعقله، وفطرته، وذوقه، والذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل، بل يتصادقان ويتوافقان فهذا علامة النور على النور "[1].

أما الزمخشري المفسر المتكلم المعتزلي، فقد بدأ تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾[2] بتوضيح السلوك الصحيح الذي يجب على الإنسان أن يلزمه، فيقول: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾أي: فقوم وجهك له عدّ له غير ملتفت يميناً ولا شمالاً، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته واهتمامه بأسبابه فإن من أهتم بالشيء عقد عليه طرفه وسدد إليه نظره وقومّ وجهه مقبلاً به عليه» ويرى أن معنى قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾أي: ألزموا فطرة الله، أو عليكم بفطرة الله، والفطرة: الخلقة، ألا ترى إلى قوله تعالى «لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» والمعنى أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نائين عنه، ولا منكرين له، لكونه مجاوباً للعقل، مساوقاً للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر ومن

(١) التفسير القيم، ابن القيم، مكتبة الهلال/ بيروت، ط ١/ ١٤١٠ هـ، ص ٣٩٦.

(٢) سورة الروم: ٣٠

غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن، ومنه قول النبي ﷺ «خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري»[(١)]، وقوله ﷺ : « كل مولود على الفطرة ...» وأن معنى قوله تعالى: «لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» أي: ما ينبغي أن تبدل الفطرة أو تتغير»[(٢)]؛ لأنها أساس التنشئة والتربية السليمة، التي تأخذ بيد صاحبها إلى طريق الخير وطريق الله المستقيم، فالتربية الصحيحة تنميها وتصقلها، وليست تغيرها وتحرفها، وتفسير الزمخشري للفطرة بأنها هي: الخلقة على التوحيد قريب جداً من رأي الجاحظ الذي أسلفنا بيانه بأنها معرفة الصواب كما أنه يتفق كذلك ورأي القاضي عبد الجبار الذي يوافق في الوقت نفسه الاتجاه الغالب من أن الفطرة هي الدين الصحيح وهو: الإسلام.

وإذا انتقلنا إلى الإمام ابن تيمية، فنجده يتناول الحديث عن الفطرة من خلال استدلاله على وجود الخالق بالفطرة المغروزة، يقول الأشعري " ونبهم على حدثهم بما فيهم من اختلاف الصور والهيئات وغير ذلك من اختلاف اللغات وكشف لهم عن طريق معرفة الفاعل لهم بما فيهم وفي غيرهم بما يقتضي وجوده ويدل على إرادته وتدبيره حيث قال ﷻ: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[(٣)]، فنبههم ﷻ بتقليبهم في سائر الهيئات التي كانوا عليها على ذلك، وشرح بقوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[(٤)]، وهذا من أوضح ما يقتضي الدلالة على حدث الإنسان

(١) رواه مسلم في صحيحه، مرجع سابق، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ٨/ ١٥٨، حديث رقم (٢٨٦٥) من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ

(٢) الكشاف، الزمخشري، دار الكتاب العربي/ بيروت، ط ٣/ ١٤٠٧ هـ، ٣/ ٤٧٩.

(٣) سورة الذاريات: ٢١.

(٤) سورة المؤمنون: ١٤.

ووجود المحدث له "[1].

فابن تيمية هنا ينبهنا إلى أثر الفطرة فينا، ويظهر ذلك عن طريق التأمل الذاتي للإنسان في نفسه وتقلبه في الصور من نطفة إلى علقة.. وهذا ما يعرف بدليل الأنفس حيث بين الله تعالى لخلقه عجزهم وفقرهم إلى صانع صنعهم، وهذا من أوضح الأدلة على معرفة الإنسان بربه ﷻ كما يرى الأشعري، وبعد أن قدم الأشعري الدليل على معرفة الإنسان لربه عن طريق تأمله الذاتي في نفسه، انتقل إلى الفطرة أيضاً في معرفة الإنسان بربه عن طريق دليل الآفاق أي: الآيات المبثوثة في الكون، فيرى أن الدليل على قدرة الله ﷻ على إعادة الخلق هو: أنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان أولاً على غير مثال سابق، والإعادة أسهل من الابتداء، ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[2]، فجعل النشأة الأولى دليلاً على جواز دليلاً على جواز النشأة الأخرى لأنها في معناها

ومما يؤكد استدلالنا وتحليلنا السابق لكلام ابن تيمية ما أورده الشهرستاني من حديث الأشعري عن دليل الأنفس، وقدرة الإنسان على الاستدلال على وجود الخالق بفطرته المغروزة فيه، وذلك: " إذا فكر في خلقته من أي شيء ابتدأ وكيف دار في أطور الخلقة طور بعد طور حتى وصل إلى كمال الخلقة، وعرف يقيناً أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقته، وينقلها من درجة إلى درجة، ويرقيها من نقص إلى كمال علم بالضرورة أن له صانعاً قادراً مريداً إذ لا يتصور حدوث هذه الأفعال المحكمة من طبع لظهور آثار الاختيار في الفطرة، وتبين آثار الإحكام والإتقان في الخلقة "[3].

فالفطرة عند ابن تيمية إذاً هي: القدرة على التمييز بين الخير والشر، ومعرفة

(١) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مطبوعات الملك فهد، ط٢/ ١٤١١هـ، ٧/ ١٨٩.

(٢) سورة يس: ٧٨، ٧٩.

(٣) الملل والنحل، الإمام الشهرستاني، مؤسسة الحلبي/ بيروت، بدون: تاريخ، ١/ ٩٤.

الحق والاهتداء إلى الخالق ﷻ، لأن معرفته ومحبته أمر مركوز في فطر الناس التي خلق الله الناس عليها، وهذا موافق لما سبق له من نصوص في الاستدلال على وجود الله أو في قدرته ﷻ على إعادة الخلق.

وأما الجويني فمن الممكن استنباط رأيه في مفهوم الفطرة عند حديثه عن وجوب النظر الموصل إلى المعارف شرعاً، وذلك لأن الأمة أجمعت على وجوب معرفة الباري، واستبان بالعقل أنه لا يتأتى الوصول إلى اكتساب المعارف إلا بالنظر(١). ومعنى ذلك فلولا أن الله سبحانه وتعالى فطر الإنسان على معرفته ومحبته، وركب ذلك في جبلته وهيئته التي أوجده الله عليها لما توصل بالنظر إلى معرفته والعلم به.

كما جاء رأي الغزالي في الفطرة موافقاً لهذا الاتجاه الذي ذهب إليه الأشعري، وتابعه عليه الجويني، وذلك حينما فسر الفطرة بأنها الهيئة، أو الخلقة التي تقبل الخير، والشر معاً، فيقول: "أوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعي فإن الصبي بجوهره خلق قابلاً للخير والشر جميعاً، وإنما أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه "(٢)، فالغزالي ينظر إلى الفطرة الإنسانية بوصفها محايدة من حيث أصلها استناداً إلى كلامه السابق.

وإن كان هناك موقف آخر للغزالي للفطرة بأنها : خيرة ،وليست محايدة. وذلك في قوله: "وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلاً، صحيح الفطرة، وإنما أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، أي : بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل، وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى بالنشؤ، والتربية بالغذاء. فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية، وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم، فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضاً، فشأنه

(١) البرهان في أصول الفقه، أبو المعالي الجويني، تحقيق: صلاح عويضة، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط ١/ ١٤١٨ هـ، ١/ ١٣، وما بعدها.

(٢) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة/ بيروت، بدون: تاريخ، ٣/ ٧٤.

جلب الصحة إليه، فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها، واكتساب صفاءها وان كانت عديمة الكمال والصفات فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها "[١].

وقد ذهب الإمام الرازي المتكلم إلى شيء آخر في حديثه عن الفطرة، وخالف ما ذهب إليه المتكلمون السابقون في تفسيرهم للفطرة بأنها: الخلقة، أو الهيئة المتهيئة لقبول الحق، فقد ذهب الرازي إلى أن الفطرة هي التوحيد، فقال: " فطرت الله أي الزم فطرة الله وهي التوحيد، فإن الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم ألست بربكم، فقالوا: بلى "[٢].

ومن هنا يتضح لنا أن علماء الكلام يقولون إن المقصود بالفطرة هي: الخلقة المهيئة لقبول الحق، وبعض منهم يقول بان الفطرة المقصود بها هو الإسلام، ولا خلاف في جوهر معنى الرأيين، فقد يكون والله أعلم بأن فطرة الخلق سميت بالإسلام؛ لأن كل منهما يطلق على الآخر وذلك لشدة تطابقهما، وتوافقهما، وانسجامهما من كل الوجوه .

□

(١) المرجع السابق، ٣/ ٦٠، وما بعدها.

(٢) تفسير الرازي، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط ٣/ ١٤٢٠ هـ، ٢٥/ ٩٨.

المطلب الثاني

دلالات معاني الفطرة عند علماء التفسير

لقد تناول المفسرون مفهوم الفطرة بالشرح والتحليل، وبينوا دلالتها وأوضحوا معانيها، وتلائم الإسلام مع طبيعتها، وموافقتها لما تعرف، ومخالفتها لما تنكر، فنرى أبا السعود المفسر يقول في معناها: " خلق الله – تعالى – الناس على فطرته، التي هي عبارة عن قبولهم للحق وتمكنهم من إدراكه، ولذا كان من موجبات لزومها التمسك بها قطعا، فإنهم لو خلو عليه أدى بهم إليها وما اختاروا عليه دينا آخر، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن "(١).

وأما الإمام البيضاوي فقد ذهب قريبا من هذا، مؤكدا لهذه الصلة التوافقية بين الخلقة وبين الدين، فيقول: "الفطرة هي قبولهم الحق وتمكنهم من إدراكه أو ملة الإسلام، فإنهم لو خلوا وما خلقوا عليه لأدى بهم إليها، وقيل: العهد المأخوذ من آدم وذريته"(٢).

ويقول ابن عطية في تفسيرها: " والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أي الفطرة أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الإنسان، والتي هي معدة ومهيئة لأن يميز بها مصنوعات الله، ويستدل بها عن ربه ويعرف شرائعه "(٣).

ويعرفها القرطبي بقوله: " الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن به، فكأنه تعالى قال: أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف، وهو فطرة الله الذي

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، بدون تاريخ، ٧/ ٦٠.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، تحقيق: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط ١/ ١٤١٨ هـ، ٤/ ٢٠٦.

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط ١/ ١٤٢٢هـ، ٤/ ٣٣٦.

على الإعداد له فطر البشر، لكن تعرضهم العوارض "[1].

بينما ذهب عامة من السلف من أهل التأويل إلى أن تعريف الفطرة شرعا هي الإسلام، واحتجوا على ذلك بعدة أمور وأدلة بيناها في الأقوال السابقة.

ومما سبق يتبين لنا أن الفطرة البشرية قد انحصرت في اتجاهين أو أمرين:

١ – الدين.

٢ – الخلقة.

ونرى أنه لا تعارض بين الأمرين، وكلا المعنيين صحيح؛ لأن الله تعالى خلق الخلق، وأرسل إليه الرسل؛ ليبلغوهم تعاليم الدين، وسميت الفطرة دينا؛ لأن الناس يخلقون له كما قال الله – تعالى – في كتابه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[2]، كما أن الاعتقاد فيه جار على مقتضى الفطرة العقلية، وتشريعاته ومعاملاته موافقة للأمور الفطرية.

وبهذا يربط الشرع الحنيف بين الفطرة الإنسانية، وبين طبيعة هذا الدين، وكلاهما من عند الله، ومتوافقان لقوانين الوجود، وكل منهما يتناسق مع الآخر ويشترك معه في الطبيعة والاتجاه؛ ولهذا إذا انحرفت الفطرة عن الطريق المستقيم لم يردها إلا الدين المناسب لها، وإذا انحرف الدين أو تغير وتبدل ترفضه الفطرة ولا تقتنع به، ولهذا جمع الله بين الدين الصحيح والفطرة السليمة برباط متناسق مشتبك ومشترك في آية واحدة، فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها.

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١٤/ ٢٩.

(٢) سورة الذاريات: ٥٦.

المبحث الرابع

العودة إلى الفطرة، وأثره في الواقع المعاصر

من أهم الأمور الفكرية التي تعتمد عليها منظومة حقوق الإنسان المعاصرة، معرفة المنطلقات الفكرية التي قامت وتقوم عليها تلك الحقوق، وتعتبر فكرة الحق الطبيعي من الأفكار الكبرى التي تتكون منها منظومة حقوق الإنسان.

ومصطلح حقوق الإنسان ومفاهيمه ينطلق مباشرة من فكرة الحق الطبيعي، الذي بدأ الحديث حوله بشكل بسيط في الفكر الغربي على يد بعض الفلاسفة الغربيين(١) حتى اكتملت تصوراتها في الفكر الغربي الحديث، ومن أكثر من تحدث عن هذا الحق الطبيعي الفيلسوف الهولندي هوغو غروتيوس، الذي بين أن القانون الطبيعي هو المعيار بين التصرفات العادلة والظالمة بتقدير العقل الإنساني كمشترك عام بين البشر، ثم جاء الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز، الذي بين أن الإنسان عاش مرحلة من العنف والصراع الدائم سماها: حرب الكل ضد الكل، والحل من وجهة نظره هو استبدال هذا العنف بعنف آخر فوق الجميع، يجعل البشر جميعا يرضخون له دون استثناء، والمتمثل في " اللوفياتان "(٢)، ويتنازل الأفراد عن حقوقهم لصالح عقد اجتماعي يضمن صالح الإرادة العامة والسلم الاجتماعي وفق سلطة مركزية تديرها الدولة.

وسار جون جاك روسو في الاتجاه نفسه، ولكنه حول فكرة الحق الطبيعي إلى قوة قانونية واختيار اجتماعي توافقي(٣) حتى تطورت فكرة الحق الطبيعي عبر عدد من النظريات الفلسفية تبين في نهايتها مساواة الناس جميعا في هذه الحقوق، وأن الحقوق

---

(١) كالفيلسوف الروماني شيشرون، في منتصف القرن الأول قبل الميلاد، ثم توما الاكويني في القرن الثالث عشر الميلادي، ثم تطورت وظهرت في الأدبيات الغربية المعاصرة، وظهرت في المواثيق الدولية.

(٢) يراجع: كتاب الليفاتان، توماس هوبز، ترجمة: ديانا حرب، مراجعة: د/ رضوان السيد، دار الفارابي للترجمة، ط ١/ ٢٠١١ م، ص ١٣٧ . ١٤٣.

(٣) في العقد الاجتماعي، جان جاك روسو، ترجمة: عبدالعزيز لبيب، المنظمة العربية للترجمة، ط ١/ ٢٠١١م، ص ١٠٥ . ١٢٤.

الطبيعية للأفراد سابقة في الوجود على الحقوق القانونية والسياسية، كما أن هذه الحقوق الطبيعية لا تسقط بالتقادم، وأهم هذه الحقوق هي الحق في الحرية، والحق في الملكية، والحق في الأمن، والحق في مقاومة الاضطهاد، ونص على هذه الأسس والحقوق في الأدبيات الأولى لحقوق الإنسان في الفكر الغربي، حتى جاءت هذه الحقوق بنصها في الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان عام ١٧٨٩م في المادة الثانية منه.

ولكن هل هذه الفكرة بعيدة عن فكرنا الإسلامي، أو هي جديدة عليه ؟

عند المقارنة المنهجية والمقاربة المعرفية نرى التقارب والتشابه بين مفهوم الفطرة الإنسانية وفكرتها وبين فكرة الحق الطبيعي، فالنصوص والمقاصد الشرعية– كما جاءت في القرآن والسنة– تعطي نظرية متماسكة حول الحق الأصلي، الذي يوجد مع الإنسان منذ ولادته في الحرية والأمن والملكية ودفع الضرر الواقع، وهي مستمدة من الضرورات الخمس(١)، الذي جاء الشرع لتقريرها، وبين أن مكفولة للإنسان منذ ولادته؛ بل يؤكدها الإسلام عليها ويفرض سياجها قبل ولادته

وإذا أردنا أن نضرب مثالا على الربط الواضح بين فكرة الحق الطبيعي ومفهوم الفطرة الإنسانية، فنجد من أبدع في هذا المجال الإمام الشيخ الأستاذ الطاهر بن عاشور، الذي بين أن مفهوم الفطرة هو الأساس المؤصل لفكرة الحق الطبيعي، ومن ثم الربط بينها وبين حقوق الإنسان في الإسلام، فالطاهر بن عاشور جعل الفطرة وصفَ الشريعة الإسلامية الأعظمَ، ومن خلالها بُنيت مقاصد الشريعة.

وهو بهذا الاعتبار يرى أن معنى الفطرة الوارد في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ

(١) وهي: حفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ الدين، وحفظ العرض، وحفظ المال.

ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾[1] هي أصل الخلقة الإنسانية، وهذا الأصل لا ينبغي أن يغيب في كل عقائد وتشريعات الإسلام، جعل ابن عاشور الفطرة الصافية من الأهواء؛ أعظم أوصاف الإسلام وتقوم عليها مقاصد الشريعة، وبناءً عليه يرى ابن عاشور أن الإسلام بأصوله وفروعه يتماشى مع الفطرة، أي مع الحق الطبيعي، والذي يمثل المشترك البشري العام، ولو افترضنا التعارض بين مطالب الإنسان وما جاء في الشريعة، فإن السبب لهذا التعارض هو انحراف الفطرة أو انحراف التأويل للشريعة.

لذلك دعا ابن عاشور للمحافظة على الفطرة بالعوائد السليمة كالآداب ومحاسن الأخلاق؛ بل إنه أبدع في ذلك عندما جعل "الحضارة الحق من الفطرة لأنها من آثار حركة العقل الذي هو من الفطرة، وأنواع المعارف الصالحة من الفطرة؛ لأنها نشأت عن تلاقح العقول وتفاوضها، والمخترعات من الفطرة لأنها متولدة عن التفكير، وفي الفطرة حب ظهور ما تولد عن الخلقة"[2]، ويؤكد أن الحاصل من كون الشريعة مبنية على الفطرة هو أن هذا الوصف العظيم صالح لأن يكون الأصل العام لفهم مناحي التشريع والاستنباط، فهو أولى الأوصاف بأن يُجعل أصلا جامعا لكليات الإسلام، وفي هذا تنبيه للعلماء أن يسايروا هذا الوصف الجامع، ويجعلوه رائدهم في إجراء الأحكام بمنزلة إبرة المغناطيس لربان السفينة[3].

وقد حذر ابن عاشور من أربع مشوهّات للفطرة، وهي: التلقينات الضالة، والعوائد الذميمة، والطبائع المنحرفة، والتفكير الضار، وهي تقريبًا الجانب السلبي من مقومات المفهوم الفطري، الذي أراده ابن عاشور أن يكون الحقَّ الطبيعي الذي يمثل إرادة

(١) سورة الروم: ٣٠

(٢) مقاصد الشريعة . ابن عاشور . الشركة التونسية للطباعة والنشر/ ١٩٧٨ م . ص ٥٩.

(٣) أصول النظام الاجتماعي، الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للطباعة/ تونس، ط٢/ ١٢٩٦ هـ، ص ٤٢، ٤٣.

الإنسان أيًّا كان.

هذه المقاربة هي وجهة نظر تُقدم رأيًا مقاصديًّا بالغَ الأهمية في أعظم النظريات الإنسانية المعاصرة والمتعلقة بالحق الطبيعي، ومن هنا يتجلى لنا أن نظرية الفطرة الإنسانية وما تقابلها في الفكر الغربي والمتمثلة بالحقوق الطبيعية، هي الأساس الفكري التي انبثقت منه غالب منظومة الحقوق الإنسانية، واعتمدت عليها المواثيق الحقوقية الأولى؛ خصوصًا التي صدرت في القرن الثامن عشر الميلادي بعد الثورة الأمريكية والفرنسية(١).

(١) استفدت هذه الفكرة من كتاب: التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر والتوزيع/ تونس، ط/ ١٩٨٤ م، ٢١/ ٩٠ وما بعدها، مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ص ٥٩، وما بعدها.

الخـاتمة

بعد تناول مفهوم الفطرة بالشرح والتحليل، تبين لي بعض النتائج الآتية، ومنها:

١- إن الفطرة ما جبل عليه الإنسان من الأشياء الظاهرة والباطنة في أصل خلقته التي تتطلبها إنسانيته وبشريته

٢- إن الدين الإسلامي متوافق مع الفطرة ومتطابق معها تطابق الأصل مع الصورة، ولذا فهي الدين، وهذا التعريف هو القول الأول من أقوال أهل العلم التي ذكرناها، وهو المعروف عند عامة السلف، وهو ما رجحه ابن تيمية، وابن القيم – رحمهما الله-. وأما عن سبب اختلافهم في معنى الفطرة في هذا الحديث هو أن القدرية كانوا يحتجون به على أن الكفر والمعصية ليسا بقضاء الله، بل مما ابتدأ الناس إحداثه، فحاول جماعة من العلماء مخالفتهم بتأويل الفطرة على غير معنى الإسلام، ولا حاجة لذلك لأن الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ الفطرة إلا الإسلام، ولا يلزم من حملها على ذلك موافقة القدرية، لأن قوله: « فأبواه يهودانه » محمول على أن ذلك يقع بتقدير الله تعالى، ومن ثم احتج عليهم مالك بقوله في آخر الحديث: « الله أعلم بما كانوا عاملين ».

٣- إن الإسلام يراعي الفطرة الإنسانية في تشريعه، فلا يأمر الإنسان إلا بما هو أصل في طبيعته وخلقته ولا ينهاه إلا بما هو مخالف لها وغريب عليها.

٤- يظهر التشابه الواضح بين مفهوم الفطرة وبين فكرة الحق الطبيعي، التي تؤصل لفكرة حقوق الإنسان التي انتشرت في المواثيق الدولية كتطور لأدبيات الحضارة الغربية مما يجعلنا نجزم بأن الفطرة هي الأصل لهذا الحق، ومنه انبثقت حقوق الإنسان.

٥- تناول علماء الكلام الفطرة بالشرح والتحليل استخداما لها في تقرير الاستدلال على وجود الله – تعالى –، فمنهم من عرفها بالخلقة المهيأة لقبول الحق، ومنهم من

عرفها بالتوحيد، والمعنيان متعلقان ببعضهما البعض .كما بينّا سابقاً .

٦- إن الفطرة الإنسانية خيّرة في أصل الخلقة، وليس معنى ذلك أنه لا يقع منها الشر، وإنما هو خارج عن أصلها وطبيعتها.

٧- على الدعاة اصطحاب المعرفة بالفطرة الإنسانية وأبعادها في الإنسان؛ لأن هذا زاد لهم في مخاطبة الناس بما استقر فيهم وما هو أصل لديهم

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

٢- البرهان في أصول الفقه، أبو المعالي الجويني، تحقيق: صلاح عويضة، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط ١/ ١٤١٨ هـ.

٣- تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن): للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، توزيع مكتبة عباس الباز، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

٤- تقريب التهذيب: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٥- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تأليف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، دار النشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب – ١٣٨٧، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ،محمد عبد الكبير البكري

٦- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب، القاهرة.

٧- درء تعارض العقل والنقل: لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحرَّاني الدمشقي، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٨- سنن الترمذي: لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق وشرح أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩- سنن الدارمي، تأليف: عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي، دار النشر: دار الكتاب العربي – بيروت – ١٤٠٧، الطبعة: الأولى، تحقيق: فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي.

١٠- شرح السنة، تأليف: الحسين بن مسعود البغوي، دار النشر: المكتب الإسلامي

– دمشق _ بيروت – ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، الطبعة: الثانية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – محمد زهير الشاويش

١١– شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تأليف: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار النشر: دار الفكر – بيروت – ١٣٩٨، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي

١٢– صحيح ابن حبان مع الإحسان: لعلاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١٣– صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق : مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

١٤– صحيح مسلم (الجامع الصحيح): لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ.

١٥– فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ترتيب وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية.

١٦– في العقد الاجتماعي، جان جاك روسو، ترجمة: عبدالعزيز لبيب، المنظمة العربية للترجمة، ط ١/ ٢٠١١م.

١٧– القاموس المحيط، تأليف: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت

١٨– لسان العرب، تأليف: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار النشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى

١٩– الليفاتان، توماس هوبز، ترجمة: ديانا حرب، مراجعة: د/ رضوان السيد، دار الفارابي للترجمة، ط ١/ ٢٠١١ م.

٢٠– مجمل اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة

الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية – ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م
٢١- المسند: للإمام أحمد بن محمد بن حنبل أبي عبد الله الشّيباني، الطبعة الميمنية، وبهامشه منتخب كنز العمال من سنن الأقوال والأفعال، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.
٢٢- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، تأليف: حافظ بن أحمد حكمي، دار النشر: دار ابن القيم، الدمام – ١٤١٠ – ١٩٩٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر
٢٣- مقاصد الشريعة . ابن عاشور . الشركة التونسية للطباعة والنشر/ ١٩٧٨ م.
٢٤- الملل والنحل، الإمام الشهرستاني، مؤسسة الحلبي/ بيروت، بدون: تاريخ.
٢٥- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبدالموجود
٢٦- النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، دار النشر: المكتبة العلمية – بيروت – ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي
٢٧- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار النشر: دار الجيل – بيروت – ١٩٧٣

فهرس الموضوعات

المقدمة	٧
المبحث الأول: تعريف الفطرة لغة واصطلاحاً وأدلتها	٩
المطلب الأول: تعريف الفطرة لغة	٩
المطلب الثاني: تعريف الفطرة اصطلاحا	١٠
المطلب الثالث: الأدلة القرآنية والنبوية التي ورد فيها ذكر الفطرة	١٣
المبحث الثاني: أهم معاني الفطرة والقول الراجح فيها	١٦
المبحث الثالث: مفهوم الفطرة في الفكر الإسلامي ومدى ارتباطها بالإسلام	٣٤
المطلب الأول: دلالات معاني الفطرة عند علماء الكلام	٣٤
المطلب الثاني: دلالات معاني الفطرة عند علماء التفسير	٤١
المبحث الرابع: العودة إلى الفطرة، وأثره في الواقع المعاصر	٤٣
الخاتمة	٤٧
المصادر والمراجع	٤٩
فهرس الموضوعات	٥٢